فضل المدنية العربية
على المدنية الغربية

للدكتور فيليب حتى
أستاذ التاريخ بجامعة برنجستون بالولايات المتحدة

خلاصة موجزة لسبع محاضرات ألقاها الأستاذ باللغة الإنجليزية في جامعة سان باولو

١ — في الأندلس

هنالك جسور ثلاثة اجتازت عليها المدنية الغربية بعناصرها الأدبية والعلمية والفلسفية والفنية من الشرق العربي إلى الغرب الأوربي : وهي سورية في العهد الصليبي (١٠٩٨ — حوالي ١٣٠٠) وصقلية في عهد الأغلبيين (٨٣١ — ١٠٩١) ثم النورمنديين ، وإسبانيا في عهد الإسلام . والذي نعنيه بالأدب العربي ما أنتجته بالأكثر قرائح الشعوب السورية واللبنانية والعراقية والفارسية وتضمنته اللغة العربية . وأهم هذه الجسور إسبانيا التي أقام العرب فيها نحو ثمانية قرون (٧١١ — ١٤٩٢) ومن مدنها طليطلة التي أصبحت في القرن الثاني عشر مركزاً هاماً للترجمة من العربية بفضل رئيس الأساقفة ريموند . وعقب طليطلة كاستيل وليون برعاية الملك ألفونسو الحكيم (١٢٥٢ — ٤) الذي أولع ولعاً خاصاً بالأدب العربي . حتى بعد أن طرد الاسبان العرب من البلاد بقي الموريسكو لمدة طويلة يكتبون الإسبانية بأحرف عربية وينشئون الأدب المعروف بالأدب الأعجمي (literatura Aljamiado)

أهم مادة في الأدب العربي إنما هي المادة الدينية . نعم إن القرآن الكريم ترجم إلى اللاتينية (١١٤١) ومنها إلى الفرنسية ومن هذه إلى الانكليزية (١٦٤٩) ولكنه لم يكن له أثر بين في الأدب الغربي لما اتصف به أبناء الغرب من التعصب الديني ضد الإسلام . ولعل أهم أثر هو قصة « المعراج والإسراء » المشار إليها في القرآن من طرف خفي (سورة ١٧ : ١) والتي توسع في شرحها والإضافة إليها القصاص وأصبحت مثلا تحداه الشاعر الإيطالي الخالد دانتي في ملحمته « الكوميديا الالهية » . والظاهر أن دانتي تأثر بكتابات الشاعر الفيلسوف السوري المعري (توفي ١٠٥٧) والشاعر العربي الصوفي الاسباني ابن عربي (توفي ١٢٤٠)

ولعل المقامات التي أنشأها بديع الزمان الهمذاني « توفي ١٠٠٨ » وتبعه فيها الحريري وغيرهما أغنى كنز أدبي بعد القرآن . وبفضل العرب الأسبان دخل هذا الطراز من الأساليب الأدبية الجديدة إلى أوربا الغربية فقلده الكتبة الاسبان والطليان ولاسيما في القصص المسماة فيجارو Figaro وكانت أول قصة إسبانية من هذا النوع (El Cavallero Cifar) وفيها ما يماثل قصص جحا

اتخذ الشعر العربي في إسبانيا ميزة جديدة قوامها وصف الطبيعة والتغني بجمالها . ومن هذا القبيل بعض أشعار عبد الرحمن الداخل « ٧٥٥ — ٨٨ » وابن زيدون « توفي ١٠٧١ »

ومن المواضيع الجديدة التي عنى بها الشعر العربي الاسباني الهوى العذري الذي يراقق المجتمع المتمدن بانعزال الحريم وتحجب النساء . فنسج على منوال هذا الأسلوب الجديد شعراء مسيحيون في إسبانيا وفي أوائل القرن الحادي عشر انتقل هذا الأسلوب إلى جنوبي فرنسا وظهرت آثاره في أدب البروفنسال Provencal

وهنالك ضرب من الشعر القومي أنشده الشعراء العاميون من مسلمي إسبانيا بداهة مما يذكرنا بأناشيد القرويين اللبنانيين المعاصرين . وكان من أهم أنواعه الزجل والموشح اللذان نسج على منوالهما شعراء إسبانيا والبرتغال ، ومن إيبيريا سار هذا الأسلوب إلى فرنسا . وكان المنشدون الجوالون المدعوون تروبادور Trovadores من جملته . ومن أول شعراء الزجل وأعظمهم ابن قزمان القرطبي « توفي ١١٦٠ » . ومجموعة الأناشيد التي جمعها الفونسو الحكيم تحت عنوان Cantigas de Santa Maria والمحسوبة من أطرف المجموعات الشعرية في القرون الوسطى إنما أوزانها من نوعي الزجل والموشح . وكذلك الأغاني المسيحية المعروفة بـ Villancico من هذا الطراز . وكان المستعربون Mozarades من أهم نقلة هذا الشعر

ومعظم الأدب العربي من النوع القصصي ومن أبكر

أمثلته « كليلة ودمنة » المترجمة عن السنسكريتية . هذه المجموعة العربية ترجمها ألفونسو فكانت من أول الكتب النثرية بالاسبانية ومن أول الكتب القصصية فى هذه اللغة ، وبعد القرن الثالث عشر أخذ الكتبة الاسبان والبرتغاليون ينسجون على منوالها ، وتبعهم الكتبة الفرنسيون . ومما حبب الأسلوب القصصى العربى إلى أبناء الغرب ألوانه الزاهية وخياله الفنى وتضمنه أمثولات أخلاقية لنفسة السامع والمطالع ، ويدخل فى هذا الباب « مختار الحكم » الذى وضعه الأمير السورى مبشر ابن فاتك زهاء حوالى ١٠٥٣ والذى ترجم إلى الاسبانية بعنوان Bokados de Yeo وطبع بالإنكليزية عام ١٤٧٧ فكان أول كتاب طبع فى هذه اللغة

أما ألف ليلة وليلة وهى أهم مجموعة قصص عربية فجاءت متأخرة ولم تظهر بشكلها الحالى حتى القرن الخامس عشر ، ولكن منها قصص كقصة السندباد البحرى وصلت شفاها إلى الاسبان وترجمت إلى لغتهم . ومما لا ريب فيه أن بعض قصص شوسر Chaucer بالانكليزية وقصص بوكاشيو Boccacio بالايطالية ترجع إلى ألف ليلة وليلة الشهيرة . ويذهب المستشرقون إلى أن الرواية الحديثة على ما يعرفها أبناء الغرب ترجع إلى قصة ابن سراج بالاسبانية historia del Abencerrage

أما الروائى الشاعر الاسبانى العظيم سرفانتس Cervantes فالمعروف عنه أنه بقى أسيراً فى أيدى قرصان عرب من الجزائر نحو خمس سنوات وهو يدعى فى مقدمة مؤلفه الرائع Don Quixote بأن كتابه من أصل عربى

٢ — فى العلوم

لم يكن لأبناء الجزيرة العربية لدى ظهور الاسلام علم بالمعنى الاصطلاحى ، ولكنهم بعد أن تغلبوا فى القرن السابع على الهلال الخصيب وفارس ومصر أخذوا عن الشعوب المغلوبة من سورية ولبنانية وعراقية وغيرها ، العلوم الحقيقية ، وكانت العلوم السورية مؤسسة على اليونانية والآرامية والسامية القديمة . أما عصر الترجمة من اليونانية إلى العربية فيتناول نحو قرن « ٧٥٠ — ٨٥٠ » وكان مركزه بغداد وقوامه العلماء السوريون الذين كانوا يتقنون اليونانية منذ فتوح الاسكندر فى القرن الرابع قبل المسيح

وفى هذا القرن جاءت من الهند مخطوطة فى علم الفلك فترجمت إلى العربية فى بغداد وأصبحت مصدراً للزيج الفلكى الذى نشره الخوارزمى « توفى نحو ٨٥٠ » وكذلك جاءت من الهند مخطوطة رياضية دخلت بفضلها الأرقام الهندية إلى العالم العربى بما فيها الصفر

ومن الأدب الفارسى نقل ابن المقفع فى بغداد قصص كليلة ودمنة كما نقل أبناء بختيشوع ، الأسرة السورية المسيحية ، مبادئ الطب الفارسى الذى كان قد تأثر بالطب اليونانى

ولكن أهم مصدر وأغزره نقل منه العرب فى ذلك العهد إنما كان المصدر اليونانى وذلك كان بفضل نشاط علماء سورية المسيحيين وشيخهم حنين بن إسحق « توفى ٨٧٣ » الذى كان له وتلاميذه اليد الطولى فى نقل كتب جالينوس الطبية ومؤلفات أرسطو العلمية والفلسفية . وكانت عملية النقل من اليونانية إلى الآرامية أو السريانية لغة سورية يومئذ ومن هذه إلى العربية . أما السوريون غير المسيحيين وهم الصابئة عبدة النجوم فى حران فإن اهتمامهم اقتصر على علمى الفلك والرياضيات ؛ فنقلوا من اليونانية إلى العربية مؤلفات اقليدس وأرخميدس وكتاب بطليموس فى الفلك والجغرافية وهو « المجسطى »

وعقب عصر الترجمة عن الهندية والفارسية والآرامية واليونانية عهد الابداع . فلم يكتف العلماء العربيون بنقل تراث الأجيال السابقة ؛ بل أضافوا إليه الكثير من نتائج تنقيباتهم وأبحاثهم وأغنوها من عندهم قبل أن يورثوها لخلفائهم

ففى الطب نشأ الرازى « توفى ٩٢٥ » الذى كان أول من ميز بطريقة علمية بين الحصبة والجدرى . وترجمت كتبه إلى اللاتينية فى طليطلة من أعمال إسبانيا بهمة جيرارد الكريمونى توفى (١١٨٧) وبعد ذلك فى صقلية . وأصبحت كتب التدريس المعول عليها فى كليات الطب الأولى فى إيطاليا وإسبانيا وفرنسا . كذلك ترجم جيرارد كتاب « القانون » فى الطب لابن سينا « توفى ١٠٣٧ » ولعله أول كتاب يقول بعدوى السل . أما

الطبيب الدمشقي ابن النفيس «توفي ١٢٨٨» فإنه وصف الدورة الدموية قبل سرفيتس البرتغالي المنسوب فضل هذا الاكتشاف إليه بنحو ثلاثة قرون

وفي إسبانيا زها أبو القاسم الزهاوي القرطبي (توفي ١٠١٣) أعظم جراحي عصره . وكتابه في الجراحة ترجم إلى اللاتينية في طليطلة وأصبح الكتاب المعول عليه للتدريس في جامعات أوربا وبقي كذلك في جامعة أكسفورد حتى عام ١٧٧٨ . وزها بعده ابن رشد (توفي ١١٩٨) الشهير بفلسفته الأرسطالية الذي كان أول من لاحظ أن من مرض بالجدري لا يمرض بهذا الداء ثانية ، والذي كان أول من فهم وظيفة شبكة العين . ومعاصر ابن رشد وصنوه في الفلسفة ابن ميمون اليهودي (توفي ١٢٠٤) كان أيضاً طبيباً، ولعله أول من وصف أطعام النباتي للمصاب بالبواسير . أما ابن الخطيب (توفي ١٣٥٠) المعروف بأديه فإنه كان أحد الأطباء القليلين الذين أدركوا أن الطاعون المعروف باسم الموت الأسود الذي اجتاح أوربا يومئذ وكاد يتركها خلوا من السكان إنما كان ينتشر بالعدوى من المريض إلى السليم لا بأمر الله

وهنالك علمان ساعدان للطب رقاهما العرب إلى حد غير مسبوق : النبات والكيمياء . من هو أعظم عالم نباتي وصيدلي أنجبته القرون الوسطى في العالم المتمدن ؟ هو بلا ريب ابن البيطار (توفي ١٢٤٨) من مواليد ملقا باسبانيا ودفين دمشق الشام . ففي كتابه « الأدوية المفردة » وصف ابن البيطار ١٤٠٠ نبتة منها ٣٠٠ لم يسبقه أحد إلى وصفها . أما علم الكيمياء فيكفي القول أن هذه الكلمة دخلت اللغات الأوربية عن طريق العربية وأن أبا هذا العلم هو جابر بن حيان الذي زها في العراق حوالي ٧٧٦

وفي الكلمات العربية الكيماوية والطبية التي تسربت إلى اللغات الأوربية من العربية — كالإكسير والسودا والشراب والقلي والكحول والأنمد والأنبيق — دليل ساطع على ما هو مدين به العلم الغربي للعلماء العرب

وفي علمي الرياضيات والفلك لمع العالم الفارسي الأصل البغدادي الاقامة الخوارزمي (توفي حوالي ٨٥٠) . فهو أول من صنف كتابا في الرياضيات وعنونه « الجبر » ولما ترجم كتابه في توليدو في أواخر القرن الثاني عشر دخل هذا العلم إلى أوربا ودخل معه اسمه . وبفضل ترجمة هذا الكتاب دخلت « الأرقام العربية » بما فيها الصفر إلى اللغات الأوربية . وكلمة صفر في اللغات الأوربية الحديثة مأخوذة من الكلمة العربية . والخوارزمي هو أيضاً واضع الزيج الفلكي الذي نقله ألفونسو الحكيم ملك قشتالة وليون (توفي ١٢٨٤) إلى الإسبانية وأصبح أساساً للزيج الفرنسي الموضوع بعدئذ في مرسيليه وانتشر شرقاً حتى الصين

ويكفي للدلالة على فضل علماء العرب على أبناء الغرب أن عدداً من أسماء النجوم — كعقرب والجدي وذنب — لم تزل لليوم في اللغات الأوربية محتفظة بأسمائها العربية

البقية في العدد القادم

فيليب حتي

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة

للمجلد الاول من كتاب

وحي الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

طبع طبعاً أنيقاً على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفاً . وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد